﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١﴾ [النساء: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضـررُ الإثـمِ لا يتعدَّى صاحبَه ووبـالُـه راجـعٌ إليه

ولَمَّا ندبَ إلى التَّوبةِ في الآية السَّابقةِ، ورغَّبَ فيها؛ بيَّنَ أنَّ ضررَ إثمِهِ لا يتعدَّى نفسَه، ووبالَه راجعٌ عليه لا على غيرِه حثًّا على التَّوبة وتهييجًا إليها؛ لِمَا جُبِلَ عليه كلُّ أحدٍ من محبَّةِ نفعِ نفسِه ودفعِ الضُّرِّ عنها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡسِبۡ﴾: يدلُّ الكسبُ على ابتغاءِ الشَّيءِ وطلبِهِ والحصولِ عليه، ممَّا فيهِ اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المالِ، وقد يستعملُ فيما يَظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ به مضرَّةً، والكَسْبُ يُقالُ فيما أخذَه لنفسِهِ ولغيرِهِ، والاكْتِسَابُ لا يقالُ إلَّا فيما استفدتَه لنفسِكَ[2]، ومعنى ﴿يَكۡسِبۡ﴾ في الآية: يأت ذنبًا عامدًا له عالمًا به[3].

2) ﴿إِثۡمٗا﴾: يدورُ معنى الإثمِ: على البطءِ والتَّأخُّرِ لثقلِ الشَّيءِ أو لحملِهِ الثَّقيل، ومنه ناقةٌ آثمةٌ، أَيْ: متأخِّرَة، والإثمُ مشتقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخيرِ متأخِّرٌ عنه؛ لما اقترفه من الوزرِ، وكأنَّ الذُّنوبَ التي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، و﴿إِثۡمٗا﴾ في الآية بمعنى: الذَّنب أو الوِزر، لثقلِ الذَّنب على صاحبه، ولأنَّه يُبطِئُه عن الثَّواب[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والجوهري، الصحاح: (كسب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/196.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والجوهري، الصحاح، وحسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم).

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

وبالُ الذَّنبِ على فاعلِه وضرُّه وعارُه على نفسِه

ومن يأت ذنبًا على عَمْدٍ منه له ومعرفةٍ به، فإنَّما يجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضرَّه وعارَه على نفسه، دون غيره، وكان اللَّه عليمًا بأمر عباده حكيمًا في قضائِه وتدبيرِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواو في الآية:

التَّرغيبُ في التَّوبةِ والتَّحذيرُ من تركها

عُطفتْ هذه الآيةُ على ما قبْلَها بالواو؛ لمناسبةِ الجمعِ بينهما في التَّرغيبِ في التَّوبةِ وللتَّحذيرِ من أنَّ مَنْ لا يستغفرِ اللَّه؛ يعاقبْه اللَّهُ عقابًا شديدًا، ومن مناسباتِ الوصلِ: توافق الآيتين في أسلوبِ الشَّرط.

دَلالةُ اسم الشَّرط ﴿وَمَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾:

الإنسانُ لا يحملُ إثمَ غيرِه عليه

عبَّرَ بـ ﴿وَمَن﴾؛ لإفادة عمومِ الأشخاص في الحُكم، ولمَّا كان كلُّ إنسانٍ غيرَ حاملٍ لشيءٍ من إثمِه على غيرِه؛ لأنَّه يكسبُه على نفسه؛ دلَّ بلازمِ فائدةِ الكلامِ على أنَّه غيرُ حاملٍ لشيءٍ من إثمِ غيره عليه، لأنَّ إثمَ غيرِه يحملُه صاحبُه على نفسِه.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

الإثمُ لا نفعَ فيه ولا ربحَ، لفضيحةِ الآثمِ في الدُّنيا وخزيِه في الآخرة

عبَّر بـ﴿يَكْسِبْ﴾ على طريقة الاستعارةِ العناديَّةِ التَّهكُّميَّة، فالأصلُ في الكسبِ ما يُجَرُّ به نفعٌ وخيرٌ، وفيه معنى الرِّبح، فاستعارَه لما يجلبُ ضرًّا وخسارةً، تنبيهًا أنَّ صاحبَه يُقدِّرُ فيما تحرَّاه أنَّه يكسبُ خيرًا، وينتفعُ به، والحالُ أنَّه يكسبُ شرًّا، ويكونُ وبالُه عليه عقوبةً وعذابًا في الدُّنيا والآخرةِ، فأفادَتِ الاستعارةُ التَّهكُّميَّةُ أنَّ ما يُتوهَّمُ فيه الخيرُ من الإثم ليس هو إلَّا شرًّا خالصًا وضُرًّا سيِّئًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/196.

فكأنَّ صاحبَ الإثم قد أُسقطَ في يديه لِمَا خابَ ظنُّه فيه من فضيحةٍ له في الدُّنيا، ومهانتِه بينَ النَّاسِ، ومن خزيِه في الآخرة وعظَمِ عقوبتِه عندَ اللهِ تعالى[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَكۡسِبۡ﴾:

للإشعارِ بأنّ صاحبَ الإثمِ مستمرٌّ عليه على سبيلِ التَّجدُّدِ والحدوثِ، وكأنَّه قد تعوَّدَ عليه، لكسبِه الإثمَ حالًا فحالًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿إِثۡمًا﴾:

استغراقُ معنى الإثمِ لِمَا كانَ صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا متعدِّيًا ضررُه أو قاصرًا

لَمَّا كان تنكيرُ الاسمِ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالإثم: أيُّ إثمٍ، كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا متعدِّيًا ضررُه إلى الآخر أو قاصرًا على صاحبِه، فيُستفادُ من العمومِ في قوله: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمًا﴾، عمومُ الأشخاصِ والآثامِ والأحوالِ الَّتي يقع فيها كسبُ الآثام، ويندرجُ تحتَ هذا العمومِ وتوبيخِه من نزلت فيهم هذه الآياتُ[2].

بلاغةُ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ في الآية:

التَّحذيرُ من تعريضِ النَّفسِ للعقابِ والعذابِ عاجلًا وآجلًا

لَمَّا كان الأصل في الجزاء أن يكون مغايرًا للشَّرط؛ كان الجزاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فإنَّ مَنْ يحمل إثمًا؛ يحمله على نفسه، فيكونُ المقصودُ من الجزاء لازمَ فائدته، ويكونُ للجزاءِ معنيان: أحدهما: فإنَّما يكسبُه على نفسه لا على غيره، ويقوِّيه مجيءُ لفظ (نفسه) أي: لا على غيرِه، أي: لن يحملَ غيرُه إثمَه عنه، والثَّاني أن تكونَ عاقبةُ الإثمِ عائدةً عليه، لا تتعدَّاه إلى غيرِه، فيكون معنى الضَّمير العائد إلى الإثم في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ﴾ مغايرًا لدلالةِ الإثم المذكور؛ لإفادتِه الحكمَ اللَّاحقَ عنِ المعصيةِ جزاءً للذَّنبِ، فيكون في الضَّمير

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1423.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111.

الاستخدامُ البلاغيُّ، ونكتةُ العدولِ إلى اتِّحاد الشَّرط والجزاء: تفخيمُ الجزاءِ والمبالغةُ فيه، وكأنَّ الجزاء لا يقادَرُ قدرُه، فيذكر، والمعنى: أنَّ الجزاء هو الكاملُ البالغُ النِّهايةِ في تعظيمِ خطرِ كسب الإثم وتحمُّل عاقبتِه ووبالِه[1]

براعةُ القصرِ بـ﴿فَإِنَّمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

لمَّا عبَّر بـ(إنَّما)؛ دلَّ على أنَّ تحمُّلَ صاحبِ الإثم إثمَه بأنْ يكونَ وبالُه وعاقبتُه عليه، لا تتعدَّاه إلى غيرِه حكمٌ منكشفٌ جليٌّ لا يحتاج إلى دليلٍ؛ لظهورِه في نفسِ الأمرِ، فهو بمنزلةِ الحقيقةِ الثَّابتةِ، فيعرفُه صاحبُ الإثم وغيرُه، ليفيدَ المبالغةَ في توبيخِه لعلمِه بعاقبةِ ما يعملُ، والمعنى: ما يكسبُ صاحبُ الإثمِ إثمَه إلَّا على نفسِه، ليفيدَ انحصارَ عقوبةِ كسبِه الإثمَ على نفسِه؛ ليكونَ من قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ على طريقة القصرِ الإضافيِّ.

توبيخُ صاحبِ الإثم لعلمِه بأنَّ وبالَ إثمِه عليه

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّفس في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

لمَّا كان الكسبُ بمعنى: جلبِ منفعةٍ أو ربحٍ إنَّما يكونُ للنَّفس برغباتها وشهواتها؛ عبَّر بالنَّفسِ لمناسبَتِه للسِّياق، للإشعارِ بأنَّ مآلَ كسبِ الإثم إلى النَّفس الَّتي رغبوا في تحصيل لذَّةِ المنفعةِ لها، ففي الكلامِ توبيخٌ وتقريعٌ على ما أبطنوه في كسبِ الإثم.

كسبُ الإثمِ لتحقيقِ رغباتِ النَّفسِ وشهواتِها

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

عبَّرَ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدِ للاستعلاءِ، على معنى: أنَّ كسبَ الإثمِ يورثُ اسْتِعْلَاءَه على صاحبِه وَاسْتِيلَاءَهُ وَقَهْرَهُ لَهُ[2].

كسبُ الإثمِ يورثُ استيلاءَه عليه وقهرَه له

بديعُ الجناس في قوله: ﴿يَكْسِبْ﴾ و﴿يَكْسِبُهُۥ﴾:

تضمَّنت الآيةُ الجناسَ التَّامَّ في الفعل (يكسب)[3]، للإشارة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والزركشي، البرهان: 2/369، والسبكي، عروس الأفراح: 2/246.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/62.

إلى أنَّ الَّذي يكسب خطيئةً أو إثمًا؛ فإنَّ عينَ ما كسبَه سيكونُ وبالًا عليه.

حسنُ التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

1. دلَّ التَّعبير بـ(كان) على دوام اتِّصافِ اللّه بالعلمِ والحكمةِ وعلى ظهورِ آثارِ علمِه وحكمتِه في النَّاس.

2. ناسبت جملة التَّذييل ما تقدَّمها في الآية؛ للإشعارِ بأنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا يَكْسِبُ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، ومجازاته بأن يكون وبالُ إثمِه عليه لا يتعدَّاه إلى غيره بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ ﷻ.

3. قدَّم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ للإشارة إلى علمِه بِذَلِكَ الإِثْمِ وَإِلَى مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ فَاعِلُهُ[1].

4. لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّنب والإثم:

يسمَّى الذَّنب ذنبًا اعتبارًا لِمَا يحصلُ من عاقبته

سُمِّيَ الإثمُ إثمًا؛ لأنَّه يُبطِّئ عن الخير، وفيه معنى التَّعمُّد ويشمل التعدِّيَ إلى الآخر

عبَّرَ في الآية الكريمة بالإثم دونَ الذَّنب؛ لوجودِ فرقٍ بينَهما، فالذَّنْبُ في الأصلِ: هو الأخذُ بذَنَبِ الشَّيءِ، يقال: ذنبْتُه: أصبتُ ذنَبَه، ويُستعملُ في كلِّ فعلٍ يُستوخمُ عُقباه اعتبارًا بذنَب الشَّيءِ، ولهذا يُسمَّى الذَّنْبُ تبعةً، وعقوبةً اعتبارًا لما يحصلُ من عاقبته[2].

والإثمُ في اللُّغة معناهُ: البُطءُ والتَّأخُّرُ عنِ الخير، مأخوذٌ من قولهم: ناقةٌ آثمةٌ، أي: متأخِّرةٌ في سيرِها، فالإثمُ: يُبطِّئ عن الخير، وفيه معنى: التّعمّد، كما تقدّم في شرحِ المفردات، ويشمل السوءَ المتعدّي إلى الغيرِ وظلمَ النّفس القاصرِ على النّفسِ، فيستحقُّ عليه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/59 - 60.
(2) الراغب، المفردات: (ذنب).

صاحبُه الذّمَّ واللَّومَ، ويُطلقُ كذلك على الفعلِ الذي تَنفرُ منه النَّفسُ، ولا يطمئنُّ إليه القلبُ[1]، فعبَّر بالإثم دونَ الذَّنب في الآية؛ لما يقتضيه السِّياق ومقامُ الكلام، وبيانُه أنَّه لَمَّا كان المرادُ تعميمَ الكلام ليشملَ السُّوء وظلم النَّفس اللَّذين وردا في الآية السَّابقة، والإيذانَ بأنَّ صاحبَ المعصيةِ يتأخَّرُ عن الثَّواب، ولن يفوزَ به، وأنَّ وبالًا عظيمًا سيصيبُه بسبب معاصيه الَّتي يقترفها عمدًا؛ عبَّر بالإثمِ دونَ الذَّنب.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/469، و4/59.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»